مقدمة التحقيق

يتعرض الناس في كل زمان ومكان لضعف الإيمان بسبب ابتعادهم عن المحيط الإيماني مدةً طويلة ، أو ابتعادهم عن معلم مرشد صالح يهذب أخلاقهم ، ويزكي نفوسهم ، ويكون لهم قدوة وأسوة صالحة ، أو ابتعادهم عن العلم الشرعي ، والثقافة الإسلامية التي تحرك مشاعر الإيمان في نفوسهم ، أو . . . .

وهذا الضعف قد يستمر أوقاتاً طويلة ، وقد يؤدي في نهاية الأمر بصاحبه إلى الانحراف في مهاوي الفساد والرذيلة ، والانزلاق في تيارات الشرك والضلال ، والابتعاد عن كل مظاهر الإسلام وشعائره .

ولكي لا يصل المسلم إلى هذه الطرق ، وكي لا يبقى أسير الفساد والانحلال ، أوجد له الإسلام طريقاً هادياً ، ودواء ناجعاً ، وسبيلاً ينير له درب الأمل والعودة إلى ظل الإسلام وهديه .

وهذا الطريق يبدأ بالتوبة والاستغفار والرجوع إلى الله عز وجل بصدق ، وثبات ، وإخلاص .

والتوبة ـ كما عرفها أحد العلماء ـ هي : رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين .

وقيل : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ،

ولا يتم ذلك إلا بالخلوة ، والصمت ، وأكل الحلال .

وقال الغزالي : التوبة عن الذنوب ، بالرجوع إلى ستار العيوب، وعلاّم الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين .

التوبة في القرآن الكريم :

ورد ذكر التوبة ومشتقاتها في القرآن الكريم زهاء (٨٥) مرة ، بين فيها سبحانه كيف تاب من سبق من الأمم ، وجزاء التوبة وثوابها ، وعقاب من لم يتب في الحياة الدنيا .

من ذلك :

١ ـ بالتوبة ينال العبد المغفرة من الله سبحانه .

قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢].

٢ ـ ينال المؤمن بالتوبة محبة الله سبحانه .

قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢].

٣ ـ التوبة النصوح تكفر الذنوب .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم : ٨].

٤ ـ من تاب في الدنيا تاب الله عليه في الآخرة .

قال تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٠].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٩].

وقال تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨].

٥ ـ بيّن الله سبحانه أن توبة من حضره الموت لا تقبل ، لأنه تاب عندما عرف نهايته ، أما عندما كان بكامل قوته وصحته اجتنب التوبة وابتعد عنها .

قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٨].

التوبة في السنة المطهرة :

بحث التوبة في السنة المطهرة بحث واسع ، تناول الإمام ابن القيمّ أجزاء كبيرة منه في بحثه الذي بين أيدينا ، ونذكر ببعض الأحاديث التي تتناول التوبة والرجوع إلى الله .

١ ـ كان رسول الله ﷺ يتوب إلى الله كل يوم سبعين أو مئة مرة ، كما في الحديث الشريف :

« يا أيها الناسُ ، توبوا إلى الله ، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وفي حديث آخر: كان أصحاب رسول الله ﷺ يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم :

« ربِّ اغفر لي ، وتبْ عليّ إنك أنت التواب الرحيم » مئة مرة.

٢ ـ الله يقبل توبة ومعذرة العبد .

قال رسول الله ﷺ : « من اعتذر إلى الله قَبِلَ الله عذره ».

وقال : « لا أحد أحبَّ إليه العذر من الله ».

٣ ـ الله يفرح بتوبة التائب أكثر من المسافر الذي فقد راحلته وطعامه وشرابه ثم وجدها .

وقال رسول الله ﷺ : « لله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم كان على راحلةٍ بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيسَ منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال ـ من شدة الفرح ـ : اللهم أنت عبدي ، وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح ».

وهناك تفصيلات كثيرة يجدها القارىء الكريم في ثنايا الكتاب .

شروط التوبة :

بيّن العلماء أن للتوبة ثلاثة شروط :

١ ـ الندم على ما سلف منه في الماضي .

٢ ـ الإقلاع عنه في الحال .

٣ ـ العزم على أن لا يعاوده في المستقبل .

وهذه الثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة ، فإنه في ذلك الوقت يندم ، ويقلع ، ويعزم .

فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خُلق لها ، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة .

حقـائق التوبـة وعلامـاتهـا :

التوبة النصوح لها علامات نذكر منها :

١ ـ مخالطة الصالحين ، والعزلة عن قرناء السوء.

٢ ـ أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

٣ ـ الانقطاع عن الذنوب ، والإقبال على الطاعة.

٤ ـ أن التائب لا يزال الخوف مصاحباً له ، لا يأمن مكر الله طرفة عين ، فخوفه مستمر .

٥ ـ الإعراض عن الدنيا بقلبه ، والإقبال على الآخرة .

٦ ـ انخلاع قلبه ، ويقظته ندماً وخوفاً ، وهذا على قدر الجناية وعظمها.

٧ ـ كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ، ولا تكون لغير المذنب ، ولا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد ، إنما هي أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة ، قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً .

يقول ابن القيم ، وما أحلى قوله في هذه الحال :

(أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني ، أسألك بقوتك وضعفي ، وبغناك عني ، وفقري إليك ، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواي كثير ، وليس لي سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلّ لك قلبه) .

ويجب أن نعلم أن تأخير التوبة من الذنب هو ذنب تجب التوبة منه ، فإذا تاب العبد من ذنبه وجب عليه أن يتوب توبة أخرى ، وهي توبته من تأخير التوبة ، وقلّ أن تخطر هذه ببال التائب .

نسأل الله التواب الرحيم ، أن يغفر زلاتنا ، ويمحو خطايانا ، ويقبل توبتنا ، إنه هو الغفور الرحيم .

والكتاب الذي بين يديك يبحث في موضوع التوبة والإنابة والرجوع إلى الله عز وجل، وهو جزء من كتاب « مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » للإمام ابن قيم الجوزية والذي هو شرح لكتاب «منازل السائرين» للإمام الهروي رحمه الله، وقد أفردناه في كتاب مستقل لضرورته وأهميته ، ولأن اسم الكتاب الأصلي لا يدلّ على ما تضمنه واحتواه .

وكان عملنا في الكتاب :

١ ـ تخريج الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة من مصادرها المعتمدة.

٢ ـ ضبط الأحاديث ، والأخبار ، والأشعار ، وما أشكل لفظه من الكلمات الغريبة والمبهمة ، مع شرحها وإيضاحها.

٣ ـ ترجمة أصحاب الأخبار والأعلام الذين ورد ذكرهم في الكتاب مع ترجمة وافية لابن القيم .

٤ ـ أبقينا على التعليقات الواردة في كتاب « مدارج السالكين » كما هي وأشرنا إليها بالحرف (م).

وختاماً نسأل الله الهدى والثبات والسداد ، إنه سميع مجيب قريب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المحققان

محمد عمر الحاجي **عبد الله بدران**